نظرة القرآن إلى الأخوة الإسلامية

للدكتور محمد البهى

القرآن الكريم يذكر «المؤمنين» على أنهم أمة واحدة لا لأنهم ينتسبون الى قبيلة واحدة ولا لأن ألوانهم وأجسامهم متشابهة ومتقاربة ، ولكن لأنهم يشتركون فى تفكير واحد، ويشتركون فى نظرة واحدة الى الحياة، وفى مقياس واحد يقيمون به أمورها وفى هدف واحد يبغون جميعا الوصول اليه ، وكأنهم فى سعيهم الى هذا الهدف يسعون اليه وهم فى صف واحد ، وفى خطوات متساوية ليس فيها متقدم ولا متأخر، ولا جانب الى اليمين وآخر الى اليسار. يقول الله تعالى فى أول سورة البقرة : «ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » . فجعلهم جماعة وخاطبهم بخطاب الجمع لأنهم اجتمعوا على الايمان بقدر مشترك ، وربطوا تفكيرهم بتنفيذ هذا الايمان .

واذن عندما تقترب الفكرة من الفكرة يكون الالتقاء بين الناس ، أفرادا أو جماعات . وعندما يصير الاشتراك فى الرأى ، والتقدير ، والهدف والأمل الى وحدة فيهما ، تكون الأخوة بين الانسان والانسان على أتمها ، وتكون المجموعة من الناس جماعة واحدة . وأمة واحدة وشعبا واحدا . واذن أشد الروابط وأقواها الاشتراك فى التفكير ، والاشتراك فى اتجاه الحياة .

واذن طالما كان الاشتراك فى التفكير والأمانى عاملا فى قيام الجماعة والتماسك بين أفرادها ـ يميل عدو الجماعة المتحدة المتآخية الى تشتيت التفكير فيها وتوزيع اتجاهها الى مناحى متعددة ، فيثير العصبية الشعوبية مرة ان كان فى الجماعة تعدد فى القبيلة أو الجنس ويثير الافتراق فى اللهجة مرة أخرى ان وجد هناك اختلاف فيها ، أو يعمد الى الضغط على اقتصادياتها أو الى ايذاء أسماع أفرادها بنابى اللفظ والقول المختلق ـ الى غير ذلك من الأسباب التى من شأنها ان تجعل الأفراد يميلون بالتفكير الى شأنهم الخاص

بدل الحرص على بقاء تفكيرهم فى الدائرة المشتركة، وبذلك تضعف الجماعة، أو تتلاشى .

وقد تحدث القرآن هنا فى قوله تعالى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا ، أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » . فذكر ان الجماعة التى قامت على الاشتراك فى التفكير ، وتآخى أفرادها على وحدة الفهم للحياة الانسانية لا بد أن تبتلى من عدوها بعوامل الفرقة العديدة ، ولكن نجاتها من محن هذا الابتلاء انما تتحقق فى صبرها ، وفى اتقائها الخضوع لما يفرق بينها ، ويشتت وحدتها ومما يفرق بينها ويشتت الوحدة فيها العودة الى الفرقة فى الرأى والابتعاد عن الالتقاء فى التفكير .

ان ما يذكره القرآن هنا فى أساس وحدة الجماعة من الاشتراك فى الاتجاه ، والاشتراك فى النظرة الى الحياة ، وما يذكره أيضا من أمر ابتلاء الجماعة من عدوها باثارة شتى عوامل التفرقة بينها ، ثم ما يذكره من علاج حاسم للخروج من أزمة هذا الابتلاء وتفويت الأمر على هذا العدو بالصبر وعدم الاذعان لما يأتى به من مظاهر الضغط ـ ما يذكره القرآن هنا هو السنة الطبيعية فى قيام الجماعة ، وفى محافظتها على وحدتها ، وتماسكها ، وفيما ينتظر من عدوها نحوها .

ان القرآن اذ يوصى هنا أصحاب الجماعة الواحدة، التى قامت على الاشتراك فى مثل الحياة وأهدافها ، من الصبر والتحمل ، عندما تمتحن بالأزمات من عدوها يجىء فى آية أخرى ويبين ان هذا الصبر وتحمل الأزمات فى سبيل الابقاء على الوحدة فى الجماعة هو هدف رفيع يجب أن يكافح الانسان فى سبيله دائما ، ولا يوازن بينه وبين ما يبتغيه العدو من تفرقة وتشتيت . فسبيل الوحدة هو سبيل الله ، وسبيل التفرقة والايذاء دائما هو سبيل الشيطان ، وما لله وينسب الى الله أبقى وأقوى ، وما للشيطان نهايته الضعف والزوال .

الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

صدق الله العظيم .